

احتفال بالناشر والمنشور مخاطبات حواء ضيافة على صفحات الاديب

▪ أ.د. خالد علي مصطفى

ان الاحتفال اي احتفال لا قيمة له إذا لم يقترن بانجاز ثقافي نوعي قادر على الاثارة والتاثير ولعل الجاحظ هو اول من أدرك أن تلاقح الأفكار هو السبيل الى الابداع، ويحول دون انب راوح العقل في موضع واح\د مثلما يحول دون ان يصدأ اذن دعوني احتفي بالأديب مع من يحتفل بها بطريقي الخاصة. لقد اصبحت التقي على صفحاتها بمن لا أستطيع لقياهم من الأدباء، لأسباب لم تعد مجهولة على أحد كما اصبحت اتعرف من خلالها على أصدقاء جدد من الأدباء وفي كلتا الحالتين نتطرح الأفكار ونرد الرأي الى رأي اخر وهكذا دواليك حتى يمتلئ البئر بفيض العقل والوجدان فقد جعلتني الاديب ارى ما لايرى واسمع ما لا يسمع وهذا امر بالغ الرفعة يعوض قليلا او كثيرا عما ينتابنا جميعا من عذاب فقدان بحيث لا يستطيع فيه أحدنا ان يتقي غوائل الليل والنهار، ومن هذا الباب باب الالتقاء بالاصدقاء البعيدين عن صفحاتها سأحتفل بثمره من ثمار الاديب نمت ورسد في العدد ١٧٥ في ١٠-٩-٢٠٠٨ وهذه الثمرة هي قصيدة الشاعرة بشرى البستاني مخاطبات حواء وهي قصيدة طويلة تكاد تكون ديوانا بمفردها وقد اتخذت من الايقاع النثري سلما للصعود الى سدره الشعر مع انها تقف في بعض الاحيان على حافة الوزن لكن دون ان تغرق فيه. قد يقال لماذا بشرى على وجه التحديد لأن هذه الشاعرة المنزوية في صومعتها لم تحظ باهتمام نقدي ملحوظ على أهمية ما تكتبه من شعر ومن نقد كذلك، قد لا أستطيع تحديد أسباب ذلك

على وجه الدقة ربما لان النقد الأدبي في ديارنا ليس نشاطا منظما قادرا على الاحتواء والتتبع ومعرفة الأشباه والنظائر، والاختلاف والائتلاف وربما لان شعر بشرى نفسه لا يطمح الى القاء الحجارة في بحيرة الحداثة وما بعدها واجتراح معجزات القطيعة والتخطي بحثا عن جنة النعيم او لهيب جهنم لا فرق. لم تلجأ بشرى الى تقديم الدعاوى النظرية لتسويغ ما تكتب فاخترت ان تظل بعيدة عن الاستعراضات التلفزيونية والمقابلات الصحفية والندوات الأدبية وما إليها من سبل الدعاية والإعلان وتفسير ذلك في تقديري ان جميع هذه السبل تضع بضائع الشعراء بكل ما فيها الرخيص مع الثمين، والثياب البالية مع احدث مبتكرات دور الأزياء والتجميل وهذا ما لا تريده الشاعرة بشرى البستاني ولا ترغب فيه بل تستنكره وتهرب منه بوصفه حماسة كاذبة قد يهبر ضوءها، لكنها سرعان ما تخمد ويذهب ريحها فيعم الظلام ولا مصباح في الطريق.

اصدرت بشرى البستاني حتى الان سبع مجموعات شعرية كان آخرها مكابدات الشجر ٢٠٠٢ وقد سبقه قبل سنتين البحر يسطاد الضفاف ٢٠٠٠ اذا اخذنا بنظر الاعتبار مجموعتها انا والاسوار ١٩٨٧ تتجلى أمامنا ثلاث علامات خاصة تتوزع في نطاقها جملة شعر بشرى :

العلامة الاولى ومنها مكابدات الشجر دلالة على نوع من الاستغراق العاطفي وفيه تتبدى المدركات الحسية من خلال فيض المشاعر الغنائية المسترسلة بلغة تلقائية لا صنع فيها ولا تصنع..

العلامة الثانية : ومنها انا والأسوار تدل على اختراق أسوار الشعر المألوفة الى فضاء التجربة التعبيرية في قصيدة النظم النثري وتعد هذه المجموعة من التجارب الشعرية الرائدة في الشعر العراقي حين لم يكن النظم النثري قد استوى على عوده آنذاك ويمكن ان ندرج مخاطبات حواء التي أتينا على ذكرها للاحتفال بالأديب لبحث هذه العلامة.

العلامة الثالثة: ومنها مجموعة البحر يسطاد الضفاف تدل على انتقال تعبيري من وهج العاطفي المسترسل الى نوع من التركيز الصوري بحيث تصبح فيه اللغة إشارية مقتضبة يشير ظاهرها الى مشهد غريب ضيق في حدثه الكلامي منفتح على حدثه الإيحائي ويمكن ان نعد هذه الانتقالة نوعا من التصوير المشهدي السيناريوي وفي ظني ان هذه المجموعة تشكل انعطافة حادة في تجربة بشرى

البستاني الشعرية وتستحق من ايما دارس للشعر او ناقد له اهتماما خاصا، قلت ان مخاطبات حواء تندرج في فضاء العلاقة الثانية التي تدل على تحرر من قيود الشعر القديمة والحديثة لكنها تمتص في جوهرها ما جاءت به العلاقة الاولى ذات الاسترسال الوجداني.

يظل شعر بشرى في جميع مراحل تطورها متوهج العاطفة يعتمد على التلقي والاستقبال من دون وسائط تفسيرية أكثر الاحيان فهو ما ان يقرع الاذن بصوته حتى يتلقاه القلب في اللحظة نفسها أفول هذا اذا كان مزاج التذوق الشعري مفتحا على جميع الانجاهات من غير تمييز بين قديم وحديث ومستعبد او متحرر الا في الابداع كل بحسب طريقته في التعبير وبهذا المعنى يندرج شعر بشرى في ما سماه القدماء من النقاد الشعر المطبوع الصادر عن موهبة مواتية وهذا ما تدل عليه ايضا مخاطبات حواء. حين قرأت هذه القصيدة شعرت بنوع من الاشتعال الروحي ابعد عني كل ما له صلة بنوع اللغة والإيقاع ومجالات التصوير فكانت القصيدة تنثال في القلب لا على هيئة أصوات لغوية بل على هيئة تصورات صوفية تنتفي فيها الحدود ويصبح الإنسان والوجود والأشياء فيها دالا بعضه على بعض فانبا بعضه في بعض، لقد تحققت في هذا النص القيم الفنية من تكرار نسقي واسترسال التعبير والقناع المزدوج والتصورات الصوفية قد يقال ان الاسترسال الوجداني الملتهب هذا قد منع الشاعرة من التركيز لكننا اذا اخذنا كل مقطع على حدة نجد مثل هذه الفضيلة متوفرة فيه، قد ينظر كلامي هذا على انه احتفال ذاتي انطباعي لا يرقى الى ما تريده المناهج الحديثة والمستحدثة من اصول موضوعية حيادية علمية في دراسة الشعر وهذا أمر قد نختلف فيه لان الأدب عامة ذو منطلق ذاتي في جوهره ولا بد له من ان يؤثر في الإنسان على النحو نفسه من الذاتية ولذلك أرى ان الحكم الجمالي تقبلا او رفضا من مهمات الذوق النقدي مهما ادعى من موضوعية وحيادية وبرودة أعصاب، لكن مخاطبات حواء تثير سؤالا مشروعا أهي قصيدة قائمة بذاتها ام مجموعة مقطعات تتوالى في خيط واحد من التوهج العاطفي وهذا يعني ان كل مقطع فيها جاء مستقلا عن الآخر لا تربطه بها إلا رابطة الشعر عامة، جاءت كل مقطعة موازية لاية مقطعة أخرى على مدى النص الشعري محققة بذلك ما ادعوه (التكرار النسقي) اذ كل مقطع يبدا بقلت..بفتح التاء ثم يليه مقول القول ومقول القول هذا لا يعدو

بضعة جمل جادة تتنوع فيها الرؤى والأبعاد لكنه حين يأخذ هذا النسق الواحد مداه يتحول الى متوقع قد يؤدي الى ضرب من الرتابة التعبيرية لكن مثل هذه التجريبية قد تسوغ مثل هذا التكرار من غير ان تبطل الحكم عليه.

مخاطبات حواء أهي مخاطبات تتوجه بها حواء نفسها الى من تحب ام هي مخاطبات يتوجه بها الحب او الحبيب إلى حواء ان مقول القول بعد فعل القول قلت جاء على لسان الحبيب يعبر عما تحس به الحبيبة فهو بهذا المعنى لا يعدو ان يكون قناعا يستبطن به الذكر بواطن الأنثى في الوقت الذي يكون فيه مرآة يرى فيها نفسه أيضا وهذه هي الحالة الصوفية التي يمتزج فيها الذكر والأنثى والتي تزداد سطوعا في كل مقطعة تالية ولا شك أن هذه التقنية (ان يكون صوت الذكر قناعا للأنثى مسألة تدعو إلى بعض التأمل بسبب من أنها تزيل الفواصل بين الزوجين وتنظر إليهما على أنهما صورة واحدة في الماهية تتجلى اثنين في الوجود وخلاصة القول أن هذا النص الشعري قد تحققت له القيم الفنية الآتية :

التكرار النسقي، الاسترسال التعبيري، القناع المزدوج، اللغة التلقائية المطبوعة، والتصورات الصوفية، وفي تقديري ان التألف في اجتماع هذه الميزات يعد تجربة جديدة في شعر بشرى البستاني.

لماذا هجر الوزن أو الإيقاع (مخاطبات حواء) مع أن طبيعة هذه المخاطبات الوجدانية تستدعيه، والحقيقة ان الوزن لم يهجر مخاطبات حواء هجرا تاما بل أبقى صلة له بها تجعل من المخاطبات واقعة على حافة الوزن ان جاز التعبير حتى انه ليقع فيه أحيانا :

وقلت يا امرأة سكونها لهب..

وصبرها عطب..

وليلها وصب

اجتاحي بالطوفان سكينتي

إذا استثنينا العبارة الأخيرة فان إيقاع هذه المقطعة يسير على الرجز بصورة عامة ومثل هذه الحال تتلامح هنا وهناك في مخاطبات حواء، أعود فأقول لقد التقيت في هذه القصيدة على صفحات الأديب بشرى البستاني وتحدثت إليها حديثا صريحا لا يخلو من الاحتفالية التي تستحقها ومن حسنات الأديب أنها

جرؤت غاية الجرأة حين عمدت الى نشر مخاطبات حواء أما الاحتفال بهذه القصيدة وهي ديوان كما ألمحت لذلك سابقا فهو احتفال بالأديب وما تنشره الأديب ويكفل لها الاستمرار في الصدور فتحية الى كل هذا الجمع المثقف الذي يرى قطرات الضوء في نهاية النفق. أن المرأة النظيفة تتلامح فيها الوجوه الحية المكثفة بعبء الزمن الاتي وبهذا تكون الاديب بذاتها تجربة فريدة تقدم او تحاول ان تقدم كل فريد الى عالم الثقافة وتسد بعضا من الثغرات التي أحدثها ما كان بالحسبان وما لم يكن بالحسبان.